



تسريد التاريخ في رواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي

Narrating History in the Novel "Memory in the Flesh" by
Ahlam Mosteghanemi

شريط سنوسي

جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر: cherietsenouci@hotmail.fr

ملخص

تروم هذه المقالة إبراز علاقة الرواية بالتاريخ من خلال الوقوف عند الكيفية التي تمّ توظيفها من قبل الروائية أحلام مستغانمي في روايتها "ذاكرة الجسد". فقد جاءت الرواية مثقلة بأسئلة التاريخ لتعيد تمثّل الكثير من الأحداث التاريخية التي عرفتها الجزائر، خصوصاً فترة الثورة التحريرية وما بعدها، وصولاً إلى أحداث 05 أكتوبر 1988 التي كانت مفصلاً أساسياً في مسيرة الجزائر. وأيضاً في مسيرة البطل "خالد بن طوبال"، ذلك المجاهد النظيف الذي فقد ذراعه أثناء الثورة التحريرية وهو يدافع عن الجزائر. وفقد أيضاً شقيقه "حسان" خلال أحداث أكتوبر 1988. انطلاقاً من هذا التصور العام لما ورد في رواية "ذاكرة الجسد"، تحاول هذه الورقة العلمية النزوع نحو تسريد التاريخ، من خلال الوقوف عند ثنائية التاريخي والتخييلي التي اتكأت عليها الروائية لصوغ رواية إبداعية متميزة. على اعتبار أن الكاتبة أحلام مستغانمي لم تنقل التاريخ كما هو، وإنما حاولت تقديم الأحداث التاريخية في قالب أدبي (روائي) يعتمد بالأساس على التخييل كآلية سردية.

كلمات مفتاحية: الذاكرة- السرد- التاريخ- التخييل- النص- البطل.

Summary:

This article aims to highlight the relationship between the novel and history by examining the way it was employed by the novelist Ahlam Mustaghanimi in her novel "Memory of the Flesh". The novel came laden with historical questions to re-present many of the historical events experienced by Algeria, especially the period of the War of Liberation and beyond, up to the events of October 5, 1988, which were a crucial turning point in Algeria's trajectory. It also explores the journey of the protagonist "Khaled bin Toubel", the pure freedom fighter who lost his arm during the

War of Liberation while defending Algeria. He also lost his brother "Hassan" during the events of October 1988. Based on this general understanding of what is contained in the novel "Memory of the Flesh", this academic paper attempts to lean towards the narration of history, by examining the duality of the historical and the fictional that the novelist relied upon to forge a distinctive creative novel. This is based on the consideration that the writer Ahlam Mustaghanimi did not merely transmit history as it is, but rather tried to present historical events in a literary (novelistic) format that primarily relies on fiction as a narrative mechanism.

Keywords: Memory, narration, history, fictionalization, text, hero

1. مقدمة: تعتبر الأدبية أحلام مستغانمي قامة إبداعية هامة في حقل الرواية العربية عموماً والرواية الجزائرية خصوصاً، لما أبدعته من أعمال أدبية (روائية/شعرية) مختلفة ومتعددة، إنها تمثل مدرسة روائية مستقلة بذاتها. حيث استطاعت أن تحقق تميزاً فريداً في الكتابة السردية الروائية، بفعل التيمات والمضامين التي عالجتها في نصوصها الروائية على وجه الخصوص، حيث تعددت بين القضايا الاجتماعية والواقعية والتاريخية، فكانت نصوصها عبارة عن سيفساء فنية وجمالية تحمل معان ودلالات كبيرة مرتبطة أساساً بالواقع الجزائري، على غرار: ذاكرة الجسد (1988)، فوضى الحواس (1997)، عابر سرير (2002)، نسيان. Com (2009)، الأسود يليق بك (2012)، شهياً كفراق (2018)، أصبحت أنت (2023) وهي سيرة روائية مثلما جاء في الغلاف، تدخل ضمن نطاق ما يسمى ب: (تذويت الكتابة)، أي أن السرد يتمحور حول ذات المؤلفة أحلام مستغانمي وسيرة عائلتها، خصوصاً والدها الشريف مستغانمي.

ورغم محدودية النصوص الروائية التي ألفتها لحد الآن، إلا أن هذا التراكم الروائي يمثل تجربة سردية فريدة في العالم العربي بشكل عام والجزائري بشكل خاص. حيث "أعطت للرواية الجزائرية إلى جانب روائيين آخرين بعداً جمالياً مفعماً بطاقة إيحائية لا مثيل لها، وبعداً لغوياً يتجاوز حدود الحقيقة المألوفة في بعض الكتابات"¹. فقد شيدت أحلام مستغانمي مساراً إبداعياً جديداً يمتح معالمه من مجالات عديدة ومتعددة، أغنتها تجربة الكتابة في حد ذاتها، باعتبارها روائية وشاعرة ومتابعة للشأن الأدبي والثقافي العربي بشكل عام.

انطلاقاً من هذا التصور المعرفي، سنحاول في هذه المقالة التطرق إلى تيمة التاريخ وكيفية اشتغال الروائية عليه من خلال عملية التسريد التي اعتمدتها في روايتها، خصوصاً وأن الكاتبة زاوجت في نصها بين التاريخي والتخييلي، مما أعطى للنص متعة فنية على مستوى السرد بشكل عام.

2. تقاطع التاريخي مع التخيلي في رواية "ذاكرة الجسد":

تشكّل رواية (ذاكرة الجسد) لأحلام مستغانمي نصّاً سرديّاً استثنائياً يقف عند تخوم الذاكرة والتاريخ الجزائريين. إنه نص أدبي يعرّي الواقع الجزائري منذ أحداث الثورة التحريرية 1954 إلى غاية أحداث 05 أكتوبر 1988 من خلال بطله "خالد بن طوبال" (الشخصية الرئيسية في الرواية) أحد مجاهدي الثورة الجزائرية، الذي شارك فيها وفَقَدَ ذراعه اليسرى في إحدى المعارك تحت قيادة "الطاهر عبد المولى" والد البطلة حياة/أحلام (الشخصية الثانية في الرواية).

تبدأ أحداث القصة في بيت "حسن" شقيق "خالد بن طوبال" في مدينة قسنطينة بعد وفاته في العاصمة خلال مظاهرات 05 أكتوبر 1988، جاء البطل من باريس مقر إقامته الدائمة (المنفى الاختياري بالنسبة إليه)، ليشيّع جثمان أخيه "حسن". في هذا البيت يبدأ "خالد" في استرجاع ذكرياته، بدءاً من ثورة التحرير إلى ما بعد الاستقلال، إلى مغادرته الوطن في اتجاه فرنسا ليتعرّف على "حياة" التي جاءت إلى باريس للدراسة، وقيم معها علاقة حب متميزة. وعبر هذه القصة يقوم البطل "خالد" بتسريد التاريخ من خلال الاتكاء على الذاكرة في سرد ما عايشه من أحداث ووقائع مؤلمة، خاصة بعد الاستقلال حين تنكّر له الوطن، ودفع به إلى المنفى الاختياري (فرنسا)، وهو الذي ناضل وجاهد من أجله، وفَقَدَ ذراعه في سبيله. فأصبح يحمل ذاكرته في جسده، وهي إشارة إلى عنوان الرواية أيضاً، وهي تحمل أكثر من دلالة. "فخالد إذن، يرمز إلى الذاكرة الجماعية: ذاكرة زمن (حرب التحرير)، ذاكرة مدينة (قسنطينة) وذاكرة وطن (الجزائر)"². فهذا النص يعتمد على الذاكرة أساساً كتقنية سردية لاستحضار ماضي الشخصية بأحداثها وسلوكاتها ومواقفها، أي "رواية التذكر بدافع ذاتي فكري كأن ترتد الذاكرة الفردية إلى الوراء بدءاً من اللحظة المعطلة (آن الحكي)، ويكون السرد اختراقاً لفراغ موحش عبر ذات تنشد المعنى بإمكان الكتابة"³. وهو ما حدث مع البطل "خالد" حينما راح بذاكرته يسترجع شريط الأحداث عبر تقنية الفلاش باك (الاستذكار/الاسترجاع).

يزخر النص بأحداث تاريخية كثيرة، يرويها السارد/البطل "خالد" بحزن ومرارة شديدة. فمن أحداث الثورة التحريرية بمعاركها العنيفة والمأسوية، إلى أحداث 08 ماي 1945، والتي شارك فيها البطل رفقة قائده الطاهر عبد المولى (شخصية متخيلة) وكتب ياسين (شخصية حقيقية)، إلى سجن الكديا (بقسنطينة) الذي نُجّ فيه البطل لمدة 05

سنوات مع العديد من المجاهدين، إلى سجنه مرة ثانية بعد الاستقلال وتعذيبه من قبل أصدقاء الأمس، مما ولد لديه مرارة كبيرة في نفسيته، مروراً بمقتل صديقه الفلسطيني "زياد الخليل" على يد الإسرائيليين، إلى زواج عشيقته وحبيبته "حياة" بالضابط العسكري "سي..."، إلى الوضعية المؤلمة التي أصبحت عليها مدينة قسنطينة، هذه المدينة العريقة التي كانت خلال الثورة التحريرية معقلاً للثوار عبر أزقتها وشوارعها وغاباتها، وانتهاءً بمقتل شقيقه "حسن" خلال مظاهرات 05 أكتوبر 1988 عن طريق الخطأ (لم يكن متظاهراً، وإنما ذهب إلى العاصمة ليتوسط لدى أصدقائه من أجل ترك مهنة التعليم والانتقال إلى مهنة أخرى).

عبر مساحة الرواية التي تصل إلى 404 صفحة من الحجم المتوسط، يعكف السارد/البطل "خالد بن طوبال" على حكي وسرد بطريقة تسلسلية لهذه الأحداث والوقائع بشكل مأساوي/حزين عبر تقنية الاسترجاع/الفلش باك. ومن خلال طبيعة الحكي الذي اعتمد عليه السارد، نلاحظ أن بعض الأحداث مرتبطة بتاريخ حقيقي وقعت فعلاً، وبعض الأحداث الأخرى متخيلة، فإذا كانت شخصيات الرواية المشاركة في الأحداث متخيلة، وليست لها صلة بالمرجع (ليست حقيقية). فإن الكثير من الوقائع والأحداث تتكى على مرجع حقيقي مثل أحداث الثورة التحريرية، ومشاركة العديد من الشخصيات الثورية فيها، والتي يتم ذكرها من قبل السارد، وهي: مصطفى بن بولعيد، والعربي بن مهيدي، ديدوش مراد (شخصيات حقيقية)، والطاهر عبد المولى، وسي مصطفى، وخالد بن طوبال (شخصيات روائية متخيلة)، ولكن يبدو لها دلالات في الواقع، إضافة إلى وجود بعض هذه الشخصيات على الحدود الجزائرية التونسية، وذهاب "خالد" إلى تونس لإجراء عملية جراحية على مستوى اليد. بالإضافة إلى وصف مدينة قسنطينة (باعتبارها موطناً للبطلين خالد وحياة) وكذلك أحداث 05 أكتوبر 1988... وغيرها من الأحداث ذات الصلة الوثيقة بالواقع الجزائري. وبالتالي نرى أن هذا المزج بين الأحداث التاريخية وهي تمثل أساساً مرجعياً للكتابة، وبين الأحداث المتخيلة التي عمدت إليها من أجل تشكيل نص سردي، تريد من خلاله إعادة قراءة التاريخ قراءة تفسيرية تطمح إلى أن تعيد إسقاطها على الوضع الراهن. وهذا ما أرادت أحلام مستغانمي الوصول إليه من خلال روايتها "ذاكرة الجسد".

3. العتبات النصية:

اشتملت رواية "ذاكرة الجسد" على بعض العتبات المهمة التي أسهمت في تقريب الدلالات والمعاني التي حوتها، منها عتبة العنوان، وعتبة الإهداء، وعتبة الفصول. ومن خلال هذه العتبات يمكننا الولوج إلى مكان النص قصد استجلاء هذه الدلالات والمعاني.

1.3. عتبة العنوان:

يعدّ العنوان فاتحة النص الروائي فهو بمثابة المفتاح الذي يلج من خلاله القارئ إلى عوالم النص لاستكناه أسرار النص ومقاصده المتنوعة. فالعنوان "يتبوأ مكانة استراتيجية في ترسنة المفاهيم الإجرائية التي يحفل بها التحليل النصي، باعتباره عنصراً جوهرياً في مكونات النص وبؤرة دلالية قد تكون المفتاح السحري الذي يتسلح به المحلل للولوج إلى أغوار النص العميقة قصد استنطاقها وتأويلها وحل شفراتها الملمغة"⁴ والمتأمل في عنوان رواية "ذاكرة الجسد" يلاحظ أنه اشتمل على كلمتين أساسيتين، هما:

أ/ذاكرة: تعني الماضي، أي الخزان الذي يحتوي على كلّ التجارب والخبرات والوقائع والأحداث التي وقعت للإنسان. والتي مع مرور الزمن عليها تصبح تشكّل تاريخاً معلوماً له. ويتم استرجاعها متى شاء الشخص، عبر العودة إلى الذاكرة.

ب/الجسد: يعني جسم الإنسان الذي يحوي هيئته.

من خلال قراءتنا للعنوان نستنتج أن الرواية تتحدث عن ذاكرة جسد شخص وهو البطل "خالد بن طوبال". وما يزيد في عمق العنوان بتركيبته اللفظية، أن البطل تعرّض إلى بتر ذراعه اليسرى أثناء الثورة التحريرية. فأصبح جسد البطل المشوّ بعد عملية البتر، يمثل ذاكرته يحملها معه في كلّ الأوقات، وفي كلّ الأمكنة التي زارها. فقد حملته أثناء تواجده في تونس عندما كان متواجداً في المستشفى (هناك أجرى عملية البتر)، وعندما زار عائلة قائده "الطاهر عبد المولى" وقام بتسجيل "حياة" في البلدية وسماها "أحلام" مثلما طلب منه والدها "سي الطاهر"، وحمله أيضاً بعد الاستقلال، وحمله كذلك إلى باريس التي اختارها منفى اختيارياً بعدما تنكّر له الوطن، وحمله إلى إسبانيا (غرناطة) عندما أقام معرضاً للوحاته. يقول السارد "خالد بن طوبال":

"كنت تحمل ذاكرتك على جسدك، ولم يكن ذلك يتطلب أي تفسير.

اليوم بعد ربع قرن...، أنت تخجل من ذراع بدلتك الفارغ الذي تخفيه بحياء في جيب سترتك، وكأنك تخفي ذاكرتك الشخصية، وتعتذر عن ماضيك لكل من لا ماضي لهم"⁵.

هذا ما يزيد في متعة هذا النص الروائي. لذا نستطيع أن نستخلص من العنوان حضور تيمة التاريخ في هذا النص من خلال كلمة "ذاكرة" التي وردت في العنوان، أي أن النص يحيل مباشرة إلى تاريخ الشخصية البطلة في الرواية، والمتمثلة في شخصية "خالد بن طوبال".

وعليه نستنتج، أن خطاب الذاكرة في رواية "ذاكرة الجسد" هو "خطاب ينبش في أعماق التاريخ، كما يغوص في أعماق النفس الإنسانية، خطاب مقنع يقتحم المحظور في صمت، ويكشف المستور بليوننة وبالتالي فالذاكرة هي هذا الجسر المتين الذي يكسر الحواجز بين الأشياء، ويطلق العنان للحديث دون قيد أو شرط، تستحضر التاريخ لتفتح المجال أمام الانسياب عبر الأزمنة المتعددة والفضاءات المختلفة، فتشكل صورة بانورامية متعددة الأبعاد، يسهل التقاط ملامحها ومكوناتها رغم تعدد أبحاثها. تأتي الذاكرة لتتجاوز التقريرية المباشرة وتخلق نفساً جديداً للذات الساردة"⁶ تجعلها تعيد سرد ماضيها بمختلف تمظهراته عبر الذاكرة التي استطاعت أن تختزن كل الأحداث والمواقف والسلوكيات والمظاهر التي وقعت عبر التاريخ. ففي هذا الشأن نجد شخصية "خالد بن طوبال" رغم أنها شخصية متخيلة، إلا أنها تمثل إسقاطاً للعديد من الشخصيات الجزائرية الحقيقية التي جاهدت وناضلت من أجل الجزائر. لكن في النهاية عاشت وضعاً مأسوياً، مثلما حدث لـ "خالد بن طوبال" عبر سرد ماضيه وواقعه التراجيدي مع الوطن، حيث انتهى بإصابته بالسرطان وهو بعيداً عن وطنه. ليموت في فرنسا (مثلما جاء في رواية "عابر سرير" وهي الجزء الثالث من الثلاثية*)).

2.3. عتبة الإهداء:

أهدت الروائية أحلام مستغانمي روايتها إلى كل من: مالك حداد ووالدها "الشريف مستغانمي":

"إلى مالك حداد.. ابن قسنطينة الذي أقسم بعد الاستقلال الجزائر ألا يكتب بلغة ليست لغته..

فاغتلتها الصفحة البيضاء.. ومات متأثراً بسلطان صمته ليصبح شهيد اللغة العربية، وأول كاتب قرر أن يموت صمتاً وقهراً وعشقاً لها.

وإلى أبي.. عساه يجد "هناك" من يتقن العربية، فيقرأ له أخيراً هذا الكتاب.. كتابه"⁷.

من خلال هذا الإهداء الاستثنائي، نستشف أن الكاتبة أرادت بعملها استحضار شخصية مالك حداد باعتباره أديباً متميزاً وشهيداً للغة العربية التي أحبها كثيراً رغم أنه لم يكتب رواياته بهذه اللغة. كما أنها أرادت بهذا الإهداء أن تستحضر أيضاً والدها المناضل والمجاهد الكبير.

ومن ثم نستشف أن الإهداء يحمل خطاباً سردياً يتضمن التاريخ من خلال شخصيات واقعية ساهمت هي الأخرى في استقلال الجزائر وهي عينة من العينات التي قصدها المؤلفة في روايتها.

3.3. عتبة الفصول: قسّمت الكاتبة أحلام مستغانمي روايتها إلى ستة (06) فصول. وكلّ فصل حوى حكايات متعددة مرتبطة بشخصية "خالد بن طوبال" في علاقاته بالشخصيات التي التقاها أو وقعت له معها مواقف وأحداث. وهذه الفصول لا تحمل عناوين، وإنما اقتصرَت الروائية على ذكر رقم الفصل فقط. وهذا من منطلق أن الرواية تحمل قصة واحدة تنفرع إلى حكايات متعددة، تكفل السارد/البطل "خالد" بسردها عبر فصولها.

4. شخصيات الرواية: بين التاريخي والتخييلي:

اشتمل النص على شخصيات عديدة، بعضها مشاركة مباشرة في أحداث الرواية مثل: "خالد بن طوبال"، و"حياة"، و"كاترين"، و"حسن"، و"عتيقة"، و"ناصر"، و"سي الشريف"، و"سي مصطفى"، والضابط "سي..." (شخصية لا تحمل اسماً معيناً). وهي كلّها شخصيات متخيّلة. والبعض الآخر يرد اسمها على سبيل التذكر، وكلّها شخصيات حقيقية، مثل: "العربي بن مهيدي"، و"ديدوش مراد"، و"كاتب ياسين"، و"الطاهر زيري"، و"زوربا"، و"نيرون"، و"نيتشة"، و"برنادشو"، و"منترلان"، و"مالك حداد" و"ابن باديس"، و"نزار قباني".....

فهنا تبدو ملاحظة في غاية الأهمية في هذه الرواية، وهي أن التاريخ يحضر باعتباره أحداثاً وقعت في الماضي بشخصياتها وأزماتها وأمكنتها، ولا تعيد الكاتبة تجسيدها مجدداً، وإنما تعيد استحضارها عبر بطلها "خالد" الذي عايش هو الآخر هذه الأحداث. لكن هذه الشخصية متخيّلة وليست حقيقية، وهنا يتداخل التاريخي مع التخييلي ليشكل نصاً سردياً يجمع بين الحقيقة والتخييل.

1.4. شخصية "خالد بن طوبال" ودلالاتها في الرواية:

يمثل "خالد بن طوبال" الشخصية الرئيسة في الرواية، وهي الشخصية الساردة والمشاركة في أحداث الرواية، فهو مجاهد من مجاهدي الثورة التحريرية، شارك في الثورة وقَدَّ ذراعه اليسرى، اختار بعد الاستقلال الهجرة إلى فرنسا بسبب عدم موافقته على ما يحدث من سلوكات وتصرفات ومواقف لبعض المسؤولين. واسم "خالد" يعني الخلود. إنه يرمز إلى الشخصيات الجزائرية النظيفة التي ناضلت وجاهدت في سبيل الوطن. وهذا الاسم يحيل إلى مصدرين أساسيين، يمكن الاستئناس بهما في تأويل دواعي الاسم الذي اختارته الروائية لبطلها "خالد بن طوبال".

1/المصدر الأول: حقيقي وهو وجود شخصية جزائرية مجاهدة باسم "لخضر بن طوبال" وهو أحد المجموعة 22 المفجرة للثورة التحريرية (01 نوفمبر 1954). فتمّ تغيير اسم "لخضر" بـ "خالد"، والإبقاء على لقب "بن طوبال". لكن ليس بالضرورة أن الكاتبة أرادت سرد تاريخ المجاهد "لخضر بن طوبال". وإنما هذا تأويل وقراءة من طرفنا لشخصية "خالد بن طوبال".

2/المصدر الثاني: أدبي مستوحى من رواية مالك حداد: "سأهبك غزالة"، حيث أن البطل الرئيس يحمل اسم "خالد بن طوبال"، وقد ذكرت الكاتبة أن العديد من المقاطع الشعرية أخذتها من بعض روايات (مالك حداد).

2.4. شخصية "حياة/أحلام" ورمزيتها في الرواية:

أما شخصية "حياة" فتعني البقاء والاستمرارية في الحياة، وهي ترمز إلى الوطن (الجزائر)، فقد أحياها البطل والمجاهد "خالد بن طوبال" وتمسك بها، لكن تزوج بها الضابط العسكري "سي...".

بينما اسم "أحلام" فيعني تطلعات الشعب الجزائري نحو بناء مستقبل أفضل بعد الاستقلال ما كان يطمح إليه البطل "خالد" عبر تعلّقه بـ "حياة/أحلام". وهو ما عبّر عنه في مقطع سردي حينما كان يسرد علاقته بـ "حياة": يقول السارد:

"كلّ شيء... حتى اسمك."

وربما كان اسمك الأكثر استفزازاً لي، فهو مازال يقفز إلى الذاكرة قبل أن تقفز حروفه المميزة إلى العين.

اسمك الذي... لا يُقرأ وإنما يُسمع كموسيقى تُعزف على آلة واحدة من أجل مستمع واحد

كيف يمكن لي أن أقرأه بحياد، وهو فصل من قصة مدهشة كتبها الصدفة، وكتبها قدرنا الذي تقاطع يوماً؟⁸.
ويقول أيضاً:

"كانت تلك أول مرة سمعت فيها اسمك...سمعته وأنا في لحظة نزيف بين الحياة والموت، فتعلّقت في غيبوتي بحروفه، كما يتعلّق محموم في لحظة هذيان بكلمة..
كما يتعلّق رسول بوصية يخاف أن تضيع منه..
كما يتعلّق غريق بحبال الحلم.
بين ألف الألم وميم المتعة كان اسمك.

تشطره حاء الحرقه.. ولام التحذير. فكيف لم أحذر اسمك الذي ولد وسط الحرائق الأولى، شعلة صغيرة في تلك الحروب. كيف لم أحذر اسماً يحمل ضده ويبدأ ب "أح" الألم واللذة معاً. طيف لم أحذر هذا الاسم المفرد-الجمع كاسم هذا الوطن، وأدرك منذ البدء أن الجمع خلق دائماً ليققسم!"⁹.

واسم "أحلام" يرتبط أيضاً بالكاتبة أحلام مستغانمي، وبالتالي فإن الرواية تتحدث عن جزء من سيرة الكاتبة. وقد أوردت كذلك اسم والدها "الشريف مستغانمي"، حيث أطلقت اسم "سي الشريف" على عم البطلة "حياة/أحلام". كما أنها أهدت الرواية إلى والدها.

وعليه فإن رواية "ذاكرة الجسد" تقوم على هاتين الشخصيتين "خالد" و"حياة" في أبعادهما الدلالية الأكثر حضوراً في النص باعتبارهما يشكّلان جوهر القصة باسميهما وسلوكاتهما ومواقفهما المعبرة عن الوضع الذي آلت إليه الجزائر بعد الاستقلال.

5. الفضاء الروائي: رحلة البطل "خالد" من قسنطينة إلى باريس إلى قسنطينة:

الفضاء الروائي في رواية "ذاكرة الجسد" محدّد المساحة ومعلوم الأماكن. فمن قسنطينة يأخذنا البطل/الساد "خالد بن طوبال" عبر سرد حكايته إلى باريس ثم العودة إلى قسنطينة. وعبر هذه الرحلة نستحضر مع البطل الأحداث والوقائع التي عايشها منذ اندلاع الثورة التحريرية إلى غاية أحداث 05 أكتوبر 1988. فمع بداية الرواية يقف البطل "خالد بن طوبال" وهو في قسنطينة، في بيت شقيقه "حسن"، حيث جاء ليشتّعه. وانطلاقاً من هذا

المكان يعود بنا البطل عبر ذاكرته إلى ماضيه البعيد ليسرد لنا حكايته مع الوطن الذي أخذ منه ذراعه أثناء الثورة، ثم شبابه وكرامته بعد الاستقلال، ثم شقيقه "حسن" في أحداث أكتوبر الأليمة. والأمكنة التي ذكرت في الرواية تتوزع بين الأماكن الحقيقية مثل: (مدينة قسنطينة، مدينة العاصمة، سجن الكدّيا، مدينة باريس، نهر السين، غرناطة...)، والأماكن المتخيلة مثل: (الغابة، الجبل، المستشفى في تونس، بيت البطل خالد في باريس، معرض اللوحات زيتية في باريس...)، والرواية تسرد أحداث البطل "خالد" بين فضاءات متخيلة يقوم السارد بإعادة سردها، وبين فضاءات حقيقية تعود بنا إلى التاريخ الجزائري. واختيار بعض الفضاءات منها قسنطينة على وجه التحديد، لم يكن اختياراً عشوائياً أو اعتباطياً، وإنما له دلالة واضحة، وهي إعادة قراءة المكان من خلال عملية استحضاره عبر ذاكرة البطل "خالد بن طوبال"، أي الكاتبة تريد إبراز التحوّلات والمتغيرات التي عرفت قسنطينة عبر التاريخ الطويل الممتد من أيام الثورة التحريرية إلى الوقت الراهن.

6. الزمن الروائي:

تتحدث رواية "ذاكرة الجسد" عن فترة زمنية طويلة، تمتد إلى سنوات عديدة، تنطلق من فترة الثورة التحريرية، وبالضبط انطلاقاً من سنة 1956 إلى غاية أحداث 05 أكتوبر 1988. ولكن الكاتبة لا تغرق في ذكر تفاصيل هذه الفترة الممتدة. وإنما تقوم بطي الزمن والقفز عليه من خلال الاهتمام بالأحداث البارزة تاريخياً عبر جعل السارد "خالد بن طوبال" يقوم بتسريدها عن طريق التذكر. ورغم أن جلّ الأحداث تاريخية (حقيقية) إلا أن الروائية أحلام مستغانمي عمدت إلى مزج هذه الأحداث التاريخية بالتخييل عبر تداخل المحكي التخيلي بالتاريخي بالذاتي (ذاتي الشخصية البطلة مع السير الذاتي للروائية). بغية تقديم رواية ممتعة بأسلوب سردي مشوّق ينقل التاريخ عبر التخيل.

إنّ الميزة الأساسية في هذه الرواية أن الكاتبة ألّفتها سنة 1988، وأن أحداث الرواية تنطلق من "حاضر" الشخصية، إذ ترصد وجود البطل "خالد بن طوبال" في بيت شقيقه "حسن" الذي اغتيل في أحداث 05 أكتوبر 1988. وعبر تواجد البطل في اللحظة الآنية لتشجيع جثة أخيه، يرتد السارد "خالد" إلى الماضي لاستحضار ماضيه وماضي الجزائر عبر الحكي انطلاقاً من مشاركته في الثورة التحريرية، إلى غاية رجوعه من فرنسا إلى قسنطينة لحضور جنازة شقيقه "حسن". أي أن السرد يتخذ حلقة دائرية يبدأ من الحاضر (تواجد "خالد" في بيت شقيقه "حسن" بقسنطينة)، ليمتد إلى الماضي ثم يعود إلى الحاضر.

7. خاتمة:

تعدّ رواية "ذاكرة الجسد" نصّاً روائياً يروم إعادة استحضار تاريخ الجزائر من خلال شخصية ثورية نظيفة أحبّت الجزائر، هي شخصية "خالد بن طوبال"، هذه الشخصية التي تحمل ذاكرتها جسدياً وفكرياً ونفسياً من خلال مشاركتها ومعايشتها للكثير من الأحداث والوقائع خلال الثورة وبعد الاستقلال.

ومن ثمّ نستطيع القول، إن الرواية تتكئ على تاريخ البطل "خالد" لإعادة تمثله من جديد لغرض إبراز سلبية الثورة التحريرية بمناضلها وسراقها ولصوصها. هؤلاء الذين لم يكونوا ملائكة مثلما راهن عليهم "خالد بن طوبال" مثل "سي مصطفى" الشخصية القريبة من "خالد بن طوبال"، والذي شارك معه في الثورة، وشهد معه الكثير من المعارك، وشخصية "سي الشريف" الذي استغلّ اسم أخيه "الطاهر عبد المولى" لتحقيق مصالحه الشخصية على حساب القيم والمبادئ. وهذا ما عبّر عنه الشاعر نزار قباني في كلمته عن هذه الرواية، حيث قال: "...الرواية قصيدة مكتوبة على كلّ البحور، بحر الحب، وبحر الجنس، وبحر الإيديولوجية، وبحر الثورة الجزائرية بمناضلها ومرتزميها، وأبطالها وقاتليها وملائكتها، وشياطينها، وأنبيائها وسارقها.. هذه الرواية لا تختصر ذاكرة الجسد فحسب، ولكنها تختصر تاريخ الوجد الجزائري، والحزن الجزائري، والجاهلية الجزائرية التي أن لها أن تنتهي..."¹⁰.

إنّ تمظهر التاريخ في رواية "ذاكرة الجسد" يحضر باعتباره أحداثاً متخيّلة (تخيّل التاريخ) روتها الكاتبة عبر محطات مختلفة، انطلاقاً من الثورة التحريرية، إلى ما بعد الاستقلال، وصولاً إلى مظاهرات 05 أكتوبر 1988 وما خلفته من أحداث مؤلمة. إنها رحلة سفريّة يقوم بها السارد/البطل "خالد بن طوبال" يروم من خلالها إعادة تسريد التاريخ الذي يمزج بين الحقائق الفعلية لأحداث الجزائر، وبين السرد التخيلي الذي يؤثث النص عبر أحداث ووقائع جنحت نحوها الكاتبة أحلام مستغانمي لإضفاء متعة فنية وصبغة جمالية على نصها الروائي. هادفة بذلك إلى إعادة قراءة التاريخ الجزائري من خلال القلب الروائي "ذاكرة الجسد".

مراجع البحث وإحالاته:

1. حمو الحاج ذهبية: القصيدة وسلطة المؤلّف في ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، مجلة مقاربات، منشورات مقاربات للصناعات الثقافية واستراتيجية التواصل، فاس (المغرب)، المجلد 09، العدد 17/2014 ص 68.

تسويد التاريخ في رواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي - (المجلد الثالث عشر / العدد الثاني / حزيران 2024)

2. رشيدة بنمسعود: سيرة الواقعي والمتخيّل في رواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي (مقال ضمن كتاب جماعي: الأدب المغاربي اليوم قراءات مغربية: مجموعة من الباحثين)، منشورات اتحاد كتّاب المغرب 2006، ص. 141.
3. مصطفى الكيلاني: زمن الرواية العربية (كتابة التجريب)، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة (تونس) 2003 ص. 49.
4. إبراهيم الحجري: الرواية العربية الجديدة (السرد وتشكل القيم)، دار النايا للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق (سوريا)، ط 2014/01 ص 22/21.
5. أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، منشورات أحلام مستغانمي، ط 2001/17 ص. 72.
6. إيمان صباغ: تجليات البعد الثوري في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، مجلة التواصلية تصدر عن مخبر اللغة وفن التواصل، جامعة يحي فارس المدية (الجزائر)، العدد 2016/09 ص 215.
- (*) ثلاثية أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد (1988)، فوضى الحواس (1997)، عابر سرير (2002).
7. أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد (مصدر سابق)، ص. 05.
8. المصدر نفسه، ص. 21.
9. المصدر نفسه، ص. 36.
10. أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد (كلمة نزار قباني على غلاف الرواية).
9. قائمة مراجع البحث:
1. أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، منشورات أحلام مستغانمي، ط 2001/17.
2. إبراهيم الحجري: الرواية العربية الجديدة (السرد وتشكل القيم)، دار النايا للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق (سوريا)، ط 2014/01.
3. إيمان صباغ: تجليات البعد الثوري في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، مجلة التواصلية تصدر عن مخبر اللغة وفن التواصل، جامعة يحي فارس المدية (الجزائر)، العدد 2016/09.
4. حمو الحاج ذهبية: القصصية وسلطة المؤلف في ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، مجلة مقاربات، منشورات مقاربات للصناعات الثقافية واستراتيجية التواصل، فاس (المغرب)، المجلد 09، العدد 2014/17.
5. مصطفى الكيلاني: زمن الرواية العربية (كتابة التجريب)، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة (تونس) 2003.
6. رشيدة بنمسعود: سيرة الواقعي والمتخيّل في رواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي (مقال ضمن كتاب جماعي: الأدب المغاربي اليوم قراءات مغربية: مجموعة من الباحثين)، منشورات اتحاد كتّاب المغرب 2006.